30 نوفمبر.. انتصار ثورة وانطلاقة نحو مستقبل مشرق

■ لعبت المقاومة الوطنية دورا بارزا ومؤثرا في دحر الاستعمار الأجنبي ورحيله عن الأرض اليمنية ، وفي سبيل ذلك قدمت المقاومة قوافل من الشهداء الذين خلدوا أسماءهم بين الأجيال وتركوا بصمات يفتخر بها أبناء الشعب اليمني الواحد . ويشهد اليوم ذكرى تلك الملاحم البطولية التي قادوها ضد الاستعمار لتكون عبرة لمن يفكر في النيل من الأوطان الحرة.

رضـــي الـقـعـود

يقول الدكتور/ سلطان عبد العزيز المعمري في ورقة عمل بعنوان « الاحتلال البريطاني ومراحل المقاومة الوطنية اليمنية» : مع ازديـاد التنافس الاستعماري الدولي للسيطرة والتحكم بموقع اليمن الهام اقتصاديا واستراتيجيا أخذت الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية تمد أيديها إلى هذه المنطقة ذات الأهمية الاستراتيجية الكبرى .. فكانت بريطانيا هي السباقة في احتلال جنوب الوطن اليمني عبر جملة من الخطوات والتدابير الملتوية .

ويذكر أن الاهتمامات الإمبراطورية البريطانية بالمنطقة اليمنية تعود إلى بداية القرن السابع عشر كجزء من المنافسة التجارية مع الأوروبيين وتحديدا البرتغاليين والهولنديين.

نقطة البداية

على طريق التهيئة لاحتلال عدن ، عقدت بريطانيا في العام١٨٠٢ م مع سلطان لحج المالك حينها لميناء عـدن أول اتفاقيـة تجارية، وأصبح ميناء عدن بمقتضى تلك الاتفاقية مفتوحا أمام الاتجار بالبضـائع البريطانية ، كما ضمنت بريطانيا بموجبها حماية خاصة لرعاياها وكذا سمح لهم بتأسيس وكالة تجارية بعدن . وتعد الاتفاقية نقطة البداية للتدخل البريطاني المباشر في الشؤون الداخلية لعدن.

الاحتلال والمقاومة

في يوم ١٨ ديسمبر١٨٣٨ م وصلت إلـى المياه الإقليمية اليمنية الجنوبية قادمتين من مومباي سفينتان حربيتان مزودتان بطاقمين من المدفعية ثم أعقبها وصول بقية القوة يوم ١٦ يناير ١٨٣٩ م ، وعلى الفور بدأت قيادة القوات البريطانية حينها تخطط لعملية إنزال في الخليج الأمامي لكريتر إلا ان المقاومة اليمنية الشديدة لم تمكنها من إنزال مدافعها ، وفي اليوم التالي أبحر الكابتن (سميث) على رأس حملة عسكرية حول خليج عدن ، وما إن وصل بالقرب من جزيرة (صيرة) حتى اخذ أفراد المقاومة بإطلاق نيران مدافعهم بشكل مكثف على القوات الغازية وأرغموها على العودة والإرساء بقية الليل في الخليج .

ومع صبيحة يوم ١٩ يناير١٨٣٩ م تم إنزال فرقتين من قواتهم حول جزيرة صيرة وبدأت نيرانها الكثيفة على القلعة وتحصيناتها المتينة التي كان يوجد فيها أفراد المقاومة الوطنية ومعهم اثنا عشر مدفعا ، فاستمر تبادل إطلاق النار في معركة غير متكافئة من حيث العدد والإمكانيات وأظهر خلالها اليمنيون مقاومة واستبسالا عنيفين وشجاعة وطنية نادرة في معركتهم القتالية ضد قوات الاحتلال البريطاني شهد لهم بها العدو، ومع ذلك وبالرغم من الهزيمة العسكرية التي منيت بها المقاومة المدافعة عن المدينة وسيطرة القـوات الغازية على عدن فإن المقاومة اليمنية لـم تتوقف بل أخـذت طابعا وطـورا آخر لمواجهة المشاريع والسياسات الاقتصادية والإدارية والعسكرية التي بدأت السـلطات الاستعمارية البريطانية على الفور تنفيذها في المدينة والمتمثلة في بناء التحصينات العسكرية للمدينة وفي تغيير التركيب الديمغرافي لها وفي انتهاج سياسة توظيفية معادية للسكان اليمنيين وسياسة كسب ولاء القبائل اليمنية في الأرياف عن طريق الترغيب ودفع المرتبات الشهرية السنوية لسلاطين وأمراء المناطق وعقد المعاهدات والاتفاقات الانفرادية معهم ..فقد شهدت المنطقة استمرارية المقاومة اليمنية المسلحة لاحتلال عدن تمثلت في قيام القبائل اليمنية بشن هجماتها العسكرية على عدن منها تلك الحملات والهجمات العسكرية للقبائل اللحجية وكذا حملات قبائل الفضلي والعقربي التي أعلنت الجهاد ضد الاحتلال الانجليزي لعدن، إضافة إلى العديد من المحاولات الفردية من قبل المواطنين.

لقد قدمت المقاومة اليمنية في كل تلك المحـاولات والهجمات الجريئة على عدن ومراكز قوات الاحتلال الكثير من الشهداء والجرحى إلى جانب تكبيدها لقـوات المستعمر خسائر كبيرة في الأرواح بين قتلى وجرحى مما أثار الخوف والفزع في أوساط الضباط البريطانيين .. ويؤكد تاريخ المقاومة اليمنية للاحتلال البريطاني انها لـم تنحصر فقط بتلك القبائل المجاورة لعدن بل انها امتدت لتشمل معظم القبائل اليمنية الأخرى في وسط اليمن وشماله وغربه، والدليل على ذلـك مواقـف حـاكم المخا، وطلب علي بن المنصور عام١٨٤٤ م من سلطان لحج الانضمام إلى الجهاد المقدس في سبيل طرد الانجليز من عدن وقيامه بقيادة جيوشه المقاتلة من صنعاء حتى وصلت لحج.

وهكذا استمرت المقاومة اليمنية في النضال ضد المحـتل وبـأشـكال مختلفة لتتوقف مؤقتا بعد أن تمكن المقيمون السياسيون البريطانيون المتعاقبون بعدن من كسب ولاء القبائل في المناطق الجنوبية اليمنية من خلال عقدهم للمعاهدات والاتفاقيات الانفرادية مع سلاطينها وأمرائها ومشايخها وهي التي عرفت بمعاهدات الصداقة والسلام، وبهذه الطرق استطاعت السلطات الاستعمارية البريطانية استكمال سيطرتها واحتلالها لأراضي ومناطق جنوب الوطن اليمني.

تعزيز السيطرة

حول هذا الأمر يقول الدكتور/ سلطان العمري: لقد عملت الإدارة البريطانية في سبيل تعزيز سيطرتها العسـكرية علـى وضـع قـوات الـسـلاح الجـوي البريطاني في عدن إلى جانب تشكيل قوات مشاة من أفراد القبائل وبتمويل من الحكومة البريطانية العسكرية ، ويعتبر العام١٩٣٧ م عـام إعـلان جنوب الوطن مستعمرة تابعة للتاج البريطاني، وأصبحت البلاد وحتى عشية الاستقلال الوطني عام١٩٦٧ م تدار مركزيا من قبل وزارة المستعمرات البريطانية في لندن، وعملت الإمبراطورية على تكريس سياستها في جنوب الوطن بهدف فرض نظام الحماية على جميع الحكام في السلطنات والمشيخات والإمارات الجنوبية . وفي هذا السبيل تمكنت الحكومة البريطانية عبر ممثلها من عقد إحدى وثلاثين معاهدة للحماية وحوالي تسعين اتفاقا حدد مقتضاها علاقات السلطات والإمارات والمشيخات في المنطقة الإمبراطورية البريطانية وأعيد تقسيمها إلـى محمية عدن الغربية وعدن الشرقية ، واعتبر المحتلون أسلوب عقد معاهدات الحماية غير كاف لإخضاع المنطقة اخضاعا كاملا .لذلك أقدمت السلطات البريطانية على عقد نوع آخر من المعاهدات عرفت بمعاهدات الاستشارة كانت الأولـى منها في أغسطس عام١٩٣٨ م مع السلطان القعيطي وكان (انغراص) أول مستشار بريطاني مقيم لدى سلطنتي القعيطي والكثيري ، إذ أوكلت له تسيير كافة شئون المحمية الشرقية أعقبها العديد منها بلغت خـلال الفترة من عام ١٩٤٥م وحتى١٩٥٤ م ثـلاث عشـرة معـاهـدة استشارية ، وكانت بريطانيا قد عمدت قبل ذلك إلى تنفيذ فكرة مقيمها السياسي بعدن (رايلي) بتوحيد دول وسلطنات وإمارات ومشيخات جنوب شبه الجـزيرة العربية في اتحاد فيدرالي يكون تابعا للإمبراطورية البريطانية ، فكان العام١٩٣٠ م البداية الفاشلة لتحقيق تلك الفكرة وفي الخمسينات عاودت السلطات الاستعمارية الكرة من اجل إنجاح الفكرة فطرح حاكم عدن (هيكينبوتم) والمستشار البريطاني في المحميات الغربية (تريفاسكيس) من جديد خطة لإقامة الاتحـاد الفدرالي بهدف تعزيز تبعية مناطق جنوب الوطن للإمبراطورية البريطانية ، وفي سبيل تحقيق أهـداف تلك الخطة اتبعت السلطات البريطانية أساليب الترغيب والترهيب والوعيد فكانت إحدى الخطوات في هذا الاتجاه هي الإطاحة بسلطان لحج علي عبد الكريم الذي أعلن تمرده على السلطات الاستعمارية ثم أعقبها في فبراير١٩٥٩ م إنشاء ما سمي باتحاد إمارات الجنوب العربي الذي ضم عند بداية إنشائه ست ولايات بعد أن كانت الحكومة البريطانية أقرت عام ١٩٥٧م جعل عدن قاعدة عسكرية رئيسية للبحرية البريطانية وأقامت فيها المقر الرئيسي للقيادة العليا للقوات المسلحة الانجليزية في الجزيرة العربية لتتحول في مارس١٩٦١ م إلى قيادة مركزية للشرق الأوسط عموما .

انتفاضة حاسمة

قامت الانتفاضـة الشعبية في منطقة ردفـان حيث سقط فيها راجح بن غالب لبوزة كأول شهيد للثورة الاكتوبرية المسلحة ، وامتدت لتشمل مناطق أخرى بما فيها المدينة عدن التي شهدت أولى العمليات الفدائية . فخلال الفترة من ١٤ اكتوبر١٩٦٣ م وحتى بداية عام١٩٦٥ م كانت الجبهة القومية تمتلك اثنتي عشرة جبهة قتالية في العديد من مناطق الجنوب اليمني المحتل سابقا إضافة إلى ان العام١٩٦٤ م قد تميز بنقل العمل العسكري إلى مدينة عدن وضواحيها التي شهدت حركة مظاهرات وإضرابات سياسية جماهيرية تأييدا للانتفاضة المسلحة شارك فيها العمال والطلبة والنساء والمثقفون .. ونشط العمل الإعلامي الجماهيري وتم تشكيل لجان الإصلاح ، وجيش التحرير في المناطق الريفية وشكلت اللجان الثورية بـدلا عـن لجـان الإصـلاح وبـدأ التنسيق والتقارب بين مناضلي الجبهة القومية والاتحاد الشعبي الديمقراطي وقيام فدائيي الجبهة القومية ب ٢٨٦عملية فدائية في عدن وحدها مقابل٣٦ عملية عام١٩٦٤ م ، وجندت الجبهة القومية كل إمكاناتها السياسية العسكرية والجماهيرية وكثفتها صـوب الانتقـال لخـوض وحسم المعركة الفاصلة مع العدو وعملائه في المنطقة وتحقيقه الاستقلال الوطني ، ورغـم الحـصـار السياسي والمـادي والعسكري المفروض على الجبهة القومية استطاع مقاتلوها وبمساهمة بعض فصائل وطنية أخرى زعزعة الأرض تحت أقدام المستعمرين .. كما كثف الفدائيون عملياتهم الهجومية العسكرية ضد عناصر ومواقع القوات الاستعمارية ، وشهدت المدينة عدن من جديد الإضـراب السياسي العام الذي أعلنته الجبهة القومية والحركة النقابية . ونتيجة لذلك الإضـراب واشـتداد حركة التظاهرات والمسيرات الشعبية الجماهيرية الرافضة للاستعمار والمؤيدة للحركة الوطنية اليمنية المناضلة من اجل الاستقلال والتحـرر التـام سجلت السلطات البريطانية٢٤ صداما في مدينة كريتر ، و ١٧صداما في أنحاء أخرى متفرقة من مدينة عدن بين الفدائيين وقوات الأمن البريطاني كان أكبرها وأشدها ضراوة تلك التي حدثت في مدينة الشيخ عثمان أثناء محاولة الفدائيين الوطنيين الاستيلاء على حي المدينة.

ومع بداية شهر نوفمبر١٩٦٧م كان فدائيون للجبهة القومية ومقاتلو جيش التحرير والحـرس الشعبي قد استكملوا عملية إسقاطهم واستيلائهم على كافة المناطق باستثناء عدن ، ونتيجة لكل ما تقدم عقد في جنيف خـلال الفترة من ٢٧ ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧م مؤتمر للتفاوض بشأن الاستقلال بين وفد من الجبهة القومية برئاسة الفقيد قحطان الشعبي وآخر يمثل الحكومة البريطانية برئاسة (شاكلتون) وتوقيعهما على وثيقة الاستقلال . وفي ٢٩ من نفس الشهر كان رحيل آخر جندي بريطاني المقدم (داي مورغان) فكان الثلاثون من نوفمبر١٩٦٧ م اليوم المشهود والفرحة الكبرى بجلاء المستعمر.

يـــوم الاســـتـــقـــلال الـمـجـيـد فـــي جـــنـــوب الـــوطـــن بـعـث الأمـــل الـعـربـي لـلـتـغـلـب عـلـى الأحـــزان وشـحـذ الـهـمـم ووحـــد الـطـاقـات لـلـنـهـوض مـن الـكـبـوة الـجـارحـة.

عبدربه منصور هادي
نائب رئيس الجمهورية